25

الشرق الأوسط: لا يزال في المنتصف

كان ينتمي كل من جورج بوش وفوكوياما لأجيال مختلفة لكن رسالة كل منهما لم تكن مختلفة بشكل جذري. في تصريحه عن الأمة في عام 1990 صرح بوش أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن مجرد مكان بل فكرة. يُمكن أن تكون هذه الفكرة ملك العالم بأجمعه. فالعالم بحاجة إلى وجود فكرة ليتمحور حولها. في أماكن أخرى، على الرغم من ذلك كان هناك أفكار أخرى، وأيضًا كان منها ما لم يتجاوز حدود المكان. بمجرد أن تصدر الشرق الأوسط بما يحويه من أماكن للعنف الواجهة مجددًا في الظروف المستحدثة، التقى الشرق والغرب مجددًا. ما لم يكن متوقعًا حدوثه في عام 1991 حدث في 2001، حيث انتقلت أحداث العنف إلى الولايات المتحدة الأمريكية. على ما يبدو أن هناك نوعًا جديدًا من الحروب يظهر على الساحة مع مظهر من مظاهر حرب الحضارات على الأقل.

الكويت: على المحك

في أغسطس عام 1990، غزا الجيش العراقي الإمارة المجاورة الموروثة التي تسمى الكويت، وبالتالي ضاعف الأمر من سيطرة صدام حسين على الاحتياطي النفطي العالمي. وقد ينتقل الأمر إلى السعودية ودولة الإمارات في الخليج. لذلك وضع نظام العالم الجديد على المحك. ما كان على المحك كان أكثر من مجرد مصير دولة صغيرة كما صرح بوش في

عام 1991. كان الأمر يتعلق بوقوف الدول معًا في قضية مشتركة لتحقيق التطلعات العالمية للبشرية. هذا هو الأمر فقط. وبناءً على ذلك أصدر مجلس الأمن قرارًا يدين الغزو ويدعوا إلى انسحاب القوات العراقية. طال الأمر حتى أواخر نوفمبر واستدعى الأمر طلب سحب القوات العراقية بحلول 15 يناير 1991. وإذا تعذر هذا، فقد تستخدم جميع الوسائل اللازمة لضمان هذه النتيجة. ولم يستخدم الاتحاد السوفيتي حق الاعتراض، على الرغم من محاولتهم التوسط في الأمر. لم تنسحب القوات العراقية، ولم يتم تحرير الكويت. كانت الحرب البرية الفعلية في عملية تُسمى "عملية عاصفة الصحراء" مركزة للغاية وفعالة. وصار قرار وقف إطلاق النار حيز التنفيذ في 28 فبراير 1991. تراجع الغزاة الذين تكبدوا خسائر فادحة إلى الحدود في حالة من الفوضى. وأعلن صدام حسين أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تقاتل العراق. وصرح جورج بوش أن العراق كان يقاتل العالم. ولم تكن هناك مطالب صحيحة بدقة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية في القيادة بما كان لديها من نصف مليون جندي منتشرين، لكن الدول الأخرى جمعت ما يقرب من نصف هذا الرقم. صدقت الأمم المتحدة على الإجراء، وبهذا المعنى وافق العالم عليه. تحمل ائتلاف بعض الدول الأوروبية والعربية الأمر مع الدعم المالي من البعض. وحتى مع ذلك، كان الأمر بعيدًا عن كون العالم يعمل. لم يشمل التدخل واحد من الثمانية من مجموع أعضاء الأمم المتحدة. وأضفى غياب الدول الكبرى في أسيا سمة غير متوازنة وترك غموضًا لنوع من السابقة العالمية، إن وجدت في الحقيقة الواقعة. لم يكن في الإمكان أن يكون جانب الولايات المتحدة ممكنًا، لأنه كان هناك بعض التذبذب، حيث لم يعارض الاتحاد السوفيتي التدخل، على الرغم إنه لم يشارك بنفسه.

تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من الاستنتاج أن عقدة فيتنام تم التغلب عليها. ومن موقع الحدث، وبحكم تفوقها التكنولوجي، كان من الممكن تحقيق النصر مع الحد الأدنى من الخسائر في الأرواح. ومع ذلك فيما كانت الأحداث تثبت ذلك، كانت كلمة انتصار طموح العالم. استعادة استقلال الكويت دلت على أن عدد كافيًا من الدول وقفت وراء الدفاع عن الدولة. لم يدفع العدوان. وتم التصديق على مبدأ محدد. على الرغم

إنه لم يدل على أي إعادة تشكيل متعمقة لمشهد الشرق الأوسط. لم يعني الأمر أن الشرق الأوسط أصبح كتلة متماسكة في عالم ما بعد الحرب الباردة. كان هذا جزءًا بسيطًا لاستمرار الانقسامات داخل الدول العربية أو العالم الإسلامي، كما هو موضح في أجزاء سابقة من هذا الكتاب، لكن تم أيضًا توضيح أن العالم الخارجي أملى النتائج. لم تصبح حدود الشرق الأوسط أقل غموضًا، ولكن مليئة بالألغاز كأنها مليئة بالخبايا الداخلية من الإقصا والإندماج. كان الموقف أكثر تعقيدًا من فكرة أن مواجهة الغرب والشرق القديمين للحرب الباردة مع العملاء من جانب واحد.

وبالتالي كان ينبغي على العالم نتيجة هذه النظرية التحرك في اتجاه واحد. فإذا كان الأمر كذلك، سقطت الرسالة على أرض حجرية في الشرق الأوسط. ربما كانت القوى الغربية فقط من لامت نفسها كما قال البعض. طلبت السياسة الواقعية منهم المحافظة على العلاقات الحميمية مع الأنظمة التي كانت بعيدة عن الديمقراطية في الطريق إلى عالم المحيط الأطلسي الذي استخدم هذا المصطلح. في ظل الظروف الجديدة، لم يكن بساط الدعم الراسخ الذي منحته الحكومات من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية في طريقة للزوال على الفور ولكن في هذا الحين تغيرت أهميته.

العراق: ما المهمة التي أنجزتها؟

في يناير 2002، في تصريحه عن حالة الاتحاد، تحدث جورج بوش عن محور الشر والتي تم حصرها على وجه التحديد في كوريا الشمالية وإيران والعراق باعتبارها الدول المارقة. ومن خلال وكالاتهم قد يحصل الإرهابيين على أسلحة الدمار الشامل. خلال السنة التي تلت ذلك، بدأ الخطاب السياسي في التحول. والاعتماد على الاحتواء كان خطرًا كبيرًا جدًا. قد تتخذ الولايات المتحدة الأمريكية إجراءات ضد التهديدات الناشئة قبل أن يتم تشكيلها بالكامل. تحول التركيز مرة أخرى إلى العراق. وكان أكثر ما هدد به صدام حسين هو حماية القاعدة، وقد يكون ساعده فى الحصول على نوع من الأسلحة التي كان يعتقد أنها متطورة. فكرة أن الوقت قد حان لإخراج صدام حسين اكتسبت شعبية كبيرة. وكان المحافظون الجدد واثقين أن الولايات المتحدة في موقف فريد من نوعه

للمضي قدمًا، وإذا لزم الأمر عليها فرض وجهات النظر. فمن شأن هذا أن يجعل العالم مكانًا أفضل. غالبًا ما كان ينظر إلى الهيمنة على أنها غطرسة جاهل. كانت منطقة الشرق الأوسط على المحك. تجمعت قوات التحالف لتحرير الكويت في عام 1991 ولم تستمر قوات التحالف الذي كرهها أسامة بن لادن كرهاً شديدًا (سيتم مناقشته أدناه) في بغداد لإنهاء أعمالها والإطاحة بصدام حسين. لم يكن من الممكن تجميع قوات التحالف على هذا الهدف. وبافتراض أنه الإطاحة بصدام حسين داخليًا أثبت خطأ ما هو التقليل من قوته ومرونته. تم معالجة مشكلة الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب بقسوة ولكن على نحو فعال. لم يحصلوا المتمردين على دعم خارجي مباشرة، على الرغم أن حظر الطيران في المناطق الغربية عرض بعض الحماية. لا يمكن نفي مرونة النظام. وهل كان هذا يعزز قدرة أسلحتها، المحظورة بعض الشيء بموجب الشروط التي أنهت الحرب؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكان كل من حجمها وطبيعتها مثيرة للجدل. طلب فريق مراقبة الأمم المتحدة من صدام حسين الانسحاب. زادت الاتهامات والنفي المتعلق بأسلحة الدمار الشامل. بشكل مطرد، انتقلت الأزمة إلى ذروتها. يُمكن أن يؤدي التعاقب في العراق إلى ظهور مرحلة جديدة للسلام في الشرق الأوسط والاحتفال في التقدم نحو الدولة الفلسطينية كما أعلن بوش في 23 فبراير 2003. في مارس 2003، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية حربها للإطاحة بنظام صدام حسين. وحققت هدفها بسرعة. ووصل بوش بنفسه للإعلان عن إنجاز المهمة. وزعم بوش أن المناشدة الدائمة لحرية الإنسان على ما يبدو قد انتصرت. لكن سرعان ما وجد الغزاة أنفسهم في مواجهة صراع داخلي عنيف والتي لم يتمكنوا من السيطرة عليه. سيحل الانتصار البسيط ولمسة من ولاية تكساس المشاكل التي عانت منها البلاد طوال فترة وجودها القصيرة بأكملها، ولا سيما القضية الكردية والعلاقات بين السنة والشيعة. جعل فشل العثور على أسلحة الدمار الشامل ذريعة للتدخل. وبدا أن الانسحاب بشكل سريع أمرًا غير وارد. على الرغم من استمرار الخسائر البشرية، وقيام الولايات المتحدة بكل ما في وسعها للحفاظ على الديمقراطية الواهية التي تكافح لأن تظهر. لكن كما قتل العراقي أخوه العراقي في تسلسل على ما يبدوا لا نهاية له، وكما لحقت أيضًا بالقوات الأجنبية خسائر متواصلة، كانت المهمة بعيدة عن تحقيق المطلوب. تم

تصوير مشروع العراق بأكمله مرارًا وتكراراً في الدول المعتدية نفسها باعتبارها من غير القانوني ومن غير الأخلاقي الإقلاع. لن تتغير العراق بين عشية وضحاها إلى منارة الديمقراطية، حيث كانت تكلفة التدخل عالية للغاية. فالغزو وما تبعه شوه سمعتها السياسة. أدى ذلك في الحالة البريطانية، في نهاية المطاف إلى تحقيق واسع النطاق في كيفية إتمام التدخل. ومن جانبهم أكد المسلمون حول العالم رأيهم حول أن الغرباء "الصليبين" ليس لديهم أي أعمال في أراضي المسلمين. لم يعجب ذلك الأجانب غير المسلمين، مشيرين بسخرية إلى حماسة المسلمين المعروضة في وقف المسلمين في هذه الأراضي، بفكرة أن الأراضي المسلمة التي شكلت منطقه الحظر العالمية. كان شائعًا في وقت لاحق بين الغزاة أن الأخطاء التي ارتكبها الغرب والشرق التقت في العراق، ولكن ليس بالضروري أنه يجب التفكير في التدخل في أي وقت مضى. مشكلة العراق باختصار انتشرت في جميع المجالات. وذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب دون تصديق من الأمم المتحدة. الأفضل من ذلك أن ما يمكن استنتاجه من الديمقراطية أن الأمم المتحدة أصدرت قرارًا يحس صدام حسين على التخلي عن كل ما لديه من أسلحة دمار شامل. ولم تصرح بالحرب إذا لم يمتثل. هذا الأمر هو ما جعل الحرب غير قانونية بالاعتماد على ما هو مفهوم من القانون الدولي. الواقعيون الذين لم يأبهوا كثيرًا لهذا القانون، قالوا أن الغزو حماقة؛ ببساطة لا يمكن أن تفيد بشيء. قد تنهزم الولايات المتحدة الأمريكية لكنها لن تفوز. وسادت فكرتها ذات الأفق الضيق. وجادل المدافعون عن الإجراء الأمريكي بينما قد كان هناك ترحيب بتصريح الأمم المتحدة، ولكن الواقع أن الأمم المتحدة لا تتمكن من حشد العالم. وتم الإشارة إلى العيوب التنظيمية الخاصة بها في الفصل الأول. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن لأحد أن يشكك أن صدام حسين كان حاكمًا وحشيًا. وكان يمكن للولايات المتحدة الأمريكية فقط عزله. لكن متى قد يتمكن التدخل من إنهاء هذا؟ وقد تنطبق نظرية الضربة الاستباقية من الناحية النظرية على الأقل في العديد من المناطق المضطربة حول العالم. لكن كانت هناك أيضًا أولئك الذين يرون أن الحرب ليس لها هدفًا راقيًا على الإطلاق. وأن كل شيء حقًا كان يدور حول النفط. يمكن سماع المزيد عن الاختلافات حول العالم عن هذه الحجج. ربما كان الجدال على أشده في الدول الأكثر ارتباطاً بالولايات المتحدة الأمريكية، لاسيما في أوروبا.

مصر وسوريا: هل هما في انتظار الحرية؟

ظلت الفجوة بين الرسالة الغربية والعلاقات الغربية بدول الشرق واسعة. وهكذا، ظلت رؤية الرئيس الأسبق مبارك رئيس جمهورية مصر العربية حليفًا قويًا للولايات المتحدة الأمريكية. وتم تجنب كلمة دكتاتور في اللغة الدبلوماسية لوصف نظامه. كان الضغط للإصلاح أمرًا غير مسموعًا عنه وتم استبداله باستقرار البلاد. لعقدين من الزمان، نجا هذا النمط لفترة طويلة. كان لدى مصر نظامًا يرجع في أصوله لانقلاب عسكري ثم بعد ذلك حصلت على تأسيسية. كان هذا أفضل من لا شيء. وقيل أن المنشقين المصريين إذا حصلوا على السلطة فقد تكون أكثر قمعية. فقد كان يسبب ظهور شبح السلطة في أيدي جماعة الأخوان المسلمين المحظورة رجفة. وقد نشرت الحجج نفسها في جميع أنظمة العالم العربي مع اختلاف الطابع المحلي المضفى عليها سواء كانت التقليدية أو الثورية. ظن العالم الخارجي أنه رأى النموذج العربي حيث ظل الحكم شخصية قوية وحيث أن السيطرة السياسية تم التمرن عليها من قبل الدوائر الداخلية التي ترتكز على العائلة أو على الولاءات التي وصفت بإنها قبلية أو طائفية. أثارت هذه الصورة استجابات مختلفة ومتقلبة. في بعض الدوائر، انتصار الأنظمة التي كانت على نطاق واسع من الاستبدادية في جميع أنحاء العالم العربي أشار إلى أنها كانت مناسبة في ظروف هذا العالم. أتت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية معًا بطريقة معينة، ومن المرجح أن تستمر رؤية الطغاة في دفة القيادة. ففي بعض الأحيان كما في حالة عائلة الأسد في سوريا أصبحوا السلالة الحاكمة. ففي عام 2000 خلف بشار (ولد في عام 1965) والده حافظ الأسد بعد وفاته. وعلى أية حال لا يشبه الطغاة بعضهم في الأسلوب والجوهر. ولا حاجة لترديد الدعاوي غير الواقعية للعقيد القذافي. كان مقدر لبشار الذي يجيد الإنجليزية أن يكون طبيب عيون، وتدرب في مستشفى العيون في لندن في أوائل التسعينيات. تزوج من فتاة سورية ترعرت في لندن والتقت به في هذا الوقت. عرف الغرب بمواجهته المباشرة معه. وعلى الرغم أن الغرس المباشر لأنظمته السياسية الداخلية الحالية لم تكن شيء يعتقد أنه أراده أو ممكن الحصول عليه. لا زالت تحاصر خطوط الصدع في السياسة السورية هويات المجموعات وتركيزاتها الإقليمية. صعدت سلالة الأسد الحاكمة على الأقلية

العلوية، لكن تلك الأقلية أكثر وقاية من غيرها من الأقليات والمسيحيين (على سبيل المثال نظام الأغلبية السنية). باختصار، كانت قضايا الهوية والولاء ليسوا مجرد مسمى للوطنية، هذا ما يقال عليه من بعض المراقبين أنه الرجل القوي الذي لا مفر منه، وربما الرجل الضروري لهذه المرحلة. حيث كانت بلدانهم بحاجة إليهم لاسيما أن الأفراد والعائلات متلاحمين معًا في المقام الأول. إذا كان هذا صحيحًا فلن يكون هناك إمكانية لتغير العالم العربي في كل الأحوال. في ضوء هذا، فإن استعادة استقلال الكويت في عام 1991 بشرت بقليل من الأمل. لم يكن تحرير الكويت فقط، كانت جميع الدول العربية قصص بمخطوطات أعيدت كتابتها من قبل الحكام الذين كان لديهم طموح في شخصيتهم بقدر الوطنية. تدخلت سوريا بلا شك في لبنان على جميع المستويات، والانسحاب الرسمي بكل الطرق أنهى مشاركتها. لكن ماذا كانت لبنان؟ إنها مسألة تتعلق بالانقسامات الداخلية المطلوب السؤال عنها. وبالمثل يمكن أن يكون القول بأن التوتر لوقت طويل بين دمشق وبغداد لم يكن بين سوريا والعراق بل كان بين علاقة الأسد وعلاقة صدام حسين.

إسرائيل/ فلسطين: لا توجد اتفاقيات دائمة

ظل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني "الصراع الأساسي" في الشرق الأوسط دون حل في 2011. وفي نوفمبر 1988، تم حث منظمة التحرير الفلسطينية على الاعتراف بالكيان الصهيوني، وفي المقابل إمكانية الوصول المباشر إلى واشنطن. في أكتوبر 1991، تمكن جيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي، من الحصول على موعد لعقد اجتماع حول الطاولة المستديرة مع الإسرائيليين والفلسطينيين والقادة العرب في مدريد. فقط بعد عام 1992 مع فوزه في انتخابات حزب العمل تحت اللواء السياسي إسحاق رابين كان من الممكن تحقيق أي تقدم. أنتجت الاتصالات السرية بين الجانبين في النرويج اتفاقية أوسلو. وقد انعقدت مشاورات في حديقة البيت الأبيض مرة أخرى في سبتمبر 1993. جاء الرئيس كلينتون ورابين وعرفات لحفل التوقيع الرسمي وقد بدا التردد أمام كاميرات التلفزيون. كان من الممكن أن توضع الفرضية وراء الاتفاقيات التي كانت مسائل صعبة

حقًا – القدس، والاستيطان الإسرائيلي، وعودة الفلسطينين – في جانب واحد. يمكن أن يكون هناك تقدم في الحكم الذاتي الفلسطيني في غزة والضفة الغربية، كما ظهرت ثقة كما قيل لتناول المسائل المستعصية. وقعت الأردن وإسرائيل اتفاقية سلام رسمية في أكتوبر تشرين الأول عام 1994. وقبلها ببضعة شهور، سمح عرفات بالعودة إلى غزة التي تحتلها إسرائيل وإقامة سلطة فلسطينية وطنية جديدة. استغرق الأمر جولة أخرى من المفاوضات في عام 1995 قبل أن تكون العلاقات المعقدة بين سلطة الكيان الصهيوني والحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية متفق عليها نظريًا. كان من المفترض أن يكون مايو 1999 التاريخ المتفق عليه رسميًا للوصول إلى حل بشأن وضع الأراضي المحتلة، بما في ذلك القدس. لكنه لم يكن كذلك. وفي نوفمبر 1995، قتل إسحاق رابين برصاص طالب في تل أبيب. كان هناك عناصر تابعة لكلا الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني لهم صوت، ولهم وجهات نظر معارضة، ممن اعتبروا أن الاتفاقيات بمثابة خيانة ورفض للفرضية الكامنة ورائها. ومن السخف أن نعتقد أن التوصل إلى تسوية بشأن القدس على سبيل المثال أمرًا قريب الحدوث. رأى بنيامين نتينياهو (ولد عام 1949)، زعيم حزب الليكود الجديد ورئيس الوزراء 1996-99، أن مستقبل المدينة غير قابل للتفاوض. وربما وافق أغلب الإسرائيليين على هذا. ومضت المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة في طريقها. إن دفاع الفلسطينين الذي يطلق عليه الإسرائيليين إرهاب عن أرضهم قد يجعلنا نرى الأمر من جوانب أخرى. جعل هذا الإسرائيليين يرفضون أي تفاوضات. وفي صيف 2000، بائت محادثات كامب ديفيد بالفشل. وشهد سبتمبر انتفاضة فلسطينية ثانية. وفي عام 2001، صرح مسؤول عسكري/ سياسي بناء السياج الأمني. وكان له مغزى رمزي. وفي أعقاب انتخابات يناير 2003، شرع شارون بسحب المستوطنين الإسرائيليين من غزة، الأمر الذي عارضه وزير الخارجية نتنياهو الذي استقال من منصبه. كان لابد أن يكون متفائلاً ومؤمنًا بأن النجاح في العراق من شأنه في الواقع تحديد وضع التقدم نحو إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية. وعلى مدى السنوات اللاحقة، بدأت محادثات بين الجانبين وذهبت هباءً منثورًا. في المقابل، اختلف الفلسطينيين، الموجودين في غزة والضفة الغربية، فيما بينهما. جاءوا سويًا إلى الأمم المتحدة في عام 2011 للحصول على الاعتراف الدولي

بدولة فلسطين. قابلت هذه الخطوة معارضة شديدة من إسرائيل والتي اعتبرتها أمريكا خطوة لا داعي لها. كان لابد من إجراء مفاوضات.

عدم اليقين سلط الضوء على الطابع الاستثنائي للعلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. كان بقاء إسرائيل في شكلها الحالي أمرًا غير قابل للتفاوض في نظر معظم يهود أمريكا (ولكن ليس من وجهة نظر اليهود فقط)، ولم يكن هناك جهدّا مبذولاً لضمان غياب تردد الإدارة الأمريكية في دعمها. ولد بول ولفويتس (ولد في عام 1943) نائب وزير الدفاع في إدارة بوش، في أسرة يهودية بولندية في نيويورك التي سكنها من هربوا من الهلوكوست الأوروبي. لم يكن هناك دفاعًا أكثر ثباتا من فترة قصيرة وسريعة ورخيصة في العراق. لم يعد النجاح في العراق حركة مهمة لحل المسأله الفلسطينية. وأُصيب بعد ذلك شارون بجلطة مما أخرجته من الحياة السياسية. وبحلول عام 2008، عاد نتنياهو رئيسًا للوزراء. وبهذا يعتبر أول شخص شاغلاً للمنصب ولد في إسرائيل، وصرح أنه لن يقوم بأي شيء يهدد أمن إسرائيل. بالنسبة للفترتين الخمسينيات والستينيات، عاشت عائلته في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ذهب إلى المدارس. وأصقل علاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية. عندما تحدث أمام الكونغرس في عام 2011، قال أنه يتكلم بلهجة فيلادلفيا بعض الشيء من شبابه. احتفى به الكونغرس. ومع ذلك كان الرئيس في البيت الأبيض مخيبًا للآمال نتيجة استمرار الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة مما جعله يحدق له بنظرات باردة. ولم يكن تعبيرًا عن المحبة الأخوية. كان من المتوقع قيام جولة أخرى من الحرب، التي كان لها عواقب لا يمكن التنبؤ بها. الصعوبات الكبيرة التي واجهتها القوات الإسرائيلية في معارك جنوب لبنان أثناء توغلها في عام 1982 أشارت إلى أن تفوق الجيش الإسرائيلي لفترة طويلة قد يكون أمرًا مبالغًا فيه. قد يُسهل الربيع العربي الذي تم مناقشته من التسوية التي قد تقبلها إسرائيل أو قد تزيد من عزلة إسرائيل وتحدي وجودها في الشرق الأوسط. لكن ظهرت مفاجآت في الشرق الأوسط. هذا النوع من الصور ساد في العالم الخارجي. ونصح بالتقاعس عن العمل، ووصل الأمر إلى اللامبالاة. ذلك ما كانت عليه الأمور. في عالم الدول السادية لم يكن هناك قوى خارجية يمكنها أو

ينبغي عليها القيام بشيء لإنتاج المزيد من الأنظمة المستنيرة. ومع ذلك، ولعوامل أخرى في العالم الخارجي، اشتم فكرة أن الاستبداد الشرقي كان أحد الجوانب الموروثة والتي تتجزأ عن العالم العربي. وهذا بالتأكيد ليس الحال. فلا توجد دولة أو مجتمع لديه سمات وطنية أساسية. ينبغي معرفة أن السعي خلف الحرية لا حدود له. حتى الآن لا يمكن أن تكون أي دولة تعتمد على إمدادات النفط أو غيرهم من منتجي الشرق الأوسط غير مبالية بالتنمية الداخلية.

هل تغير العالم تمامًا في أحداث سبتمبر؟

أدت الهجمات في 9 سبتمبر عام 2001 على مركز التجارة العالمي في نيويورك (وعلى البنتاغون في واشنطن) إلى مقتل 3000 شخص. في الولايات المتحدة الأمريكية، تأسس عصرًا جديدًا، حيث أنه من المفترض أن تحول الشحنة العاطفية الكبيرة نمط عقد من الزمان. ضرب الهجوم أيضًا العالم حيث فقد مواطنين من حوالي 90 دولة أرواحهم. لكن كانت الصدمة قتل عدد كبير من الضحايا في حادث واحد، كما دمر فرضية أن الولايات المتحدة الأمريكية غير معرضة للخطر. وعادت ذكريات الهجوم على ميناء بيرل هاربر عام 1941. لم يكن تم تحديد أي غزو عسكري رسمي من قبل الدولة. واستخدمت الطائرات التجارية المختطفة من المطارات الأمريكية في الهجوم. كان ينقص العالم ضماناته العقلية المعهودة (غياب الحدود القانونية، والنظم الرسمية التابعة للدولة، والجيش وساسة العالم). ارتبط الرجال المشاركين بتنظيم القاعدة الذي أسسه أسامة بن لادن. كانت القاعدة تنتشر في كل مكان. كان عالمًا غامضًا لكنه تم تكهنه. حيث لم يكن بن لادن (ولد 1957) مهمشًا في المجتمع السعودي. درس الاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز في الرياض عام 1981. كان على اتصال جيد بعائلته التي ملكت واحدة من أكبر شركات المقاولات في الشرق الأوسط. على الرغم من اهتمامه بالمقاولات في شبابه، إلا إنها لم تكن مجرد تجارة. كان الأمر إعادة بناء للعالم الإسلامي من بخاري إلى جنوب أسبانيا. كان التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة من وجهة نظره في الحقيقة احتلالاً للأراضي الإسلامية المقدسة. وتم بالفعل توجيه المقاتلين والأموال للمقاتلين الأفغان ضد

الاحتلال السوفيتي. وفي عام 1994، أُلغيت جنسيته وتم تجميد أصوله ودعم الحركات المتشددة الأصولية على الرغم من تميز البلاد بالوهابية المتشددة للإسلام في البيئة الدينية، إلا أنها في بعض الأحيان عندما تخرج عن حدودها توصف بالأصولية. لم تكن تحركاته بعد ذلك معروفة على وجه التحديد لعدة سنوات، إلا أنه كان يعمل في أفغانستان. كان هناك شخصيات أخرى معه وخصوصًا من مصر ممن أعُجب بتفكيره. وتم تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين في عام 2000 والتي أعلنت أن جميع المسلمين من الواجب عليهم قتل الأمريكيين وحلفائهم. ودمر بناءً على ذلك برجي مركز التجارة العالمي بعد عام واحد من هذا. تدفقت التعبيرات الرسمية المتعاطفة مع الولايات المتحدة. وكانت الكراهية الشديدة لأمريكا في بعض الدول الإسلامية تجاوزت فهم البيت الأبيض، وربما معظم الأمريكيين. أعلن الرئيس بوش الحرب على الإرهاب مفسرًا التعاطف العالمي بوجوب اتخاذ إجراءات عالمية أثبتت تهرب بن لادن، والذي كان معروفًا أنه الهدف الرئيسي. لم يتمكن العالم من التحرك في وئام بشكل عام. في الولايات المتحدة نفسها، وبعض حلفائها، كانت الطريقة الوحيدة لضمان الأمن الداخلي هو التعمق في معرفة الشرق الأوسط، على الرغم من أنها منطقة كبيرة. في نهاية المطاف، سيتم إنشاء شرق أوسط ممتد يتعامل بسهولة ويسر مع نفسه، وقد يكون مرتاحًا للعلاقات مع أمريكا، لكن تحقيق ذلك قد ينطوي على مسار مؤلم في كل جولة.برر صناع السياسة في واشنطن ذلك وسعوا لتحقيقه. لكن هذا العمل ستستفيد منه إسرائيل ولن يحظي باهتمام الإسرائيليين وأعضاء الإدارة اليهوديه وغير اليهودية المؤمنين بشكل راسخ بقضيتهم.

أوجه غموض الحرية الدائمة من كابول إلى القاهرة، ومن طرابلس إلى دمشق، ومن الجزائر إلى طهران

كانت "عملية الحرية الدائمة" بمثابة رد أمريكي محدد على هجمات 11 سبتمبر. فقد فتحت الطريق أمام الولايات المتحدة وبعض حلفائها إلى أفغانستان في أكتوبر/ تشرين الأول لعام 2001 للقضاء على نظام طالبان الموجود بها حيث كانت مأوى ل بن لادن وكان بها مجموعة من الأصوليين. وقد بدا أن نوع من النجاح قد تحقق على الفور بالتعاون

مع تحالف الشمال الأفغاني الحر. ومع ذلك، وبعد مرور حقبة من الزمن لا تزال القوات الأمريكية والبريطانية وقوات أخرى غيرها من دول حلف شمال الأطلنطي NATO العاملة وفقًا لقواعد الاشتباك منتشرة بأفغانستان. وتخيم علامة استفهام على الأفق بمجرد عودة القوات الأجنبية إلى ديارها أو إنهاءها دورها القتالي. كان من الممكن إزالة حكومة طالبان ولكن تشكيل حكومة أفغانية تعمل بفعالية واستحسان تطلب بعض الوقت: ما مقدار الوقت الذي كان يُحدد باستمرار؟ لقد صار الأمر عقيدة أن القوات الأجنبية لن تبقى إلى أجل غير مسمى بالأعداد اللازمة لإضعاف (إن لم يكن لهزيمة) قوى المعارضة الطالبانية. فسيمنح الجيش الوطني الأفغاني الدولة ككل الحماية التي تحتاجها إذا ما أنشأت حكومتها. لقد كانت هناك حلقة مفرغة في تلك التأكيدات وبمرور الوقت أصبح حجم الدول المختلفة في الصراع والشراكة أكثر وضوحًا، فقال البعض أن استمرار وجود القوات الأجنبية كان له نتائج عكسية. ومع الازدياد المطرد في حجم الخسائر التي أصابتهم، ازدادت الضغوط المحلية للعودة للوطن. لقد سعت حكوماتها لجعل سياسات الخروج التي وضعتها مسبقًا مقنعة. ولم يكن جليًا أن الحرية، كما ظنتها القوات المحتلة أو الداعمة لها، ستستمر. كما تضررت السمعة الأمريكية نتيجة للمعتقلين الذين اعتقلوا نتيجة للحملة على أفغانستان، والذين سجنوا في سجن خليج غوانتانامو في المنشأة الأمريكية في كوبا. مما أدى إلى تصاعد حجم الانتقادات الخارجية والتركيز على السبب الرئيسي لأسرهم وتسليمهم ومعاملتهم ووضعهم. ولقد كان الأخير عسيرًا في المناقشات القانونية في الولايات المتحدة مما أحبط نية الإدارة الأمريكية الجديدة في عام 2009 لإغلاق السجن. ومن ثم فقد بقيت تهمه أنه دفاعًا عن الحرية فقد لجأت الولايات المتحدة لوسائل لا تقبلها الدول المتحضرة. ولم يكن هناك أدنى يقين بأنه حتى لو أصبحت أفغانستان آمنة فإن ذلك سيحبط آفاق الإرهاب في أي مكان آخر سواء أكان هذا الإرهاب ينبع من الداخل (كما هو الحال عليه في لندن أو مدريد) أو تم تدبيره من الخارج نظرًا للقاعدة التي تقول أن تنظيم القاعدة متنقل. وعندما تم تحديد مكان بن لادن في نهاية المطاف وقتله بواسطة القوات الخاصة الأمريكية في عام 2011 كان يعيش بمأمن في باكستان. أما كيف حدث ذلك وما مثله فقد اكتنفه الغموض. وأينما وجدت الحقيقة في هذه الحالة، فقد

ألقت الضوء على مدى تداخل الصراعات وإمكانية اختراق الحدود. لقد كان مستقبلي أفغانستان وباكستان مرتبطين في تحالفات معقدة. وغالبا ما حملت العلاقات الحكومية علاقة بسيطة بالواقع عند مستويات مختلفة. فلم يتم بالتأكيد حل جميع المسائل التي أفسدت باكستان منذ قيامها ومنها العلاقات المدنية والعسكرية والفساد والعنف والكوارث الطبيعية وأعمال العنف العرقي (سواء في كراتشي أو في الشمال الغربي) والحرية الدينية وكشمير. لقد كان في الصومال واليمن ونيجيريا والمغرب وأماكن أخرى في العالم الإسلامي لا يمكن استيعابها بسهولة ضمن فئات العقيدة والسلوك التي يطبقها الغرباء. ومع ذلك، فما يجب أن يكون عليه الشرق الأوسط أصبح مسألة أكبر من الشرق الأوسط. لقد كانت هذه الحقيقة في حد ذاتها مزعجة في المنطقة التي ظلت خليطًا من الأنظمة المتنافسة. وقد يكون الحكم الاستبدادي، والذي انتشر للغاية بصور مختلفة، قمعيًا بوجه عام ولكن ذلك لم يكن دون فائدة بالنسبة للأفراد أو المجموعات في الأنظمة الأسرية. وفي مواجهة رجال أقوياء، اختلط الخوف والإعجاب بدورهم سواء في ليبيا أو اليمن أو العديد من الأماكن أخرى. وفي مثل تلك الظروف سيكون الحث صراحة أو ضمنيًا على الموافقة على التوصيف الغربي الذي يأيده الغرب بالنسبة للحكومة والمجتمع، مهينًا مرة أخرى. ومع ذلك، فقد كان من المهين أيضًا العيش على الدوام مع فكرة أن العالم العربي كان يرزخ بالفعل تحت أنواع مختلفة من الاستبداد وتقليص الحرية أو القضاء عليها. ومن ثم فقد لوحظت ردود فعل مختلفة. لقد كان هناك رفضًا متجددًا، في بعض مناحي الأجندة الديموقراطية. أن قبولها كحزمة إجمالية سيكون استسلامًا غير إسلامي للنظرية الديموقراطية وتنازلاتها الضمنية والتي حرفت كيفية تصور الإسلام لتنظيم المجتمع. ولكن هل كان هذا صحيحًا؟ أحيانًا ما أضاف المسلمون في الغرب المسيحي أو العلماني أصواتهم المعارضة- أصوليين أو محدثين- إلى النقاش. ومن ناحية أخرى فقد كان هناك مسارات غير دينية لمستقبل الشرق الأوسط. فقال البعض أن على الديموقراطية أن تأتي ولكن بدون تسرع ويجب أن تتمتع بخصائص أصلية واضحة في العملية. في حين رأى بعض المتشككين الآخرين أن هناك حاجة لثورة كاملة. وسيتطلب ذلك أكثر من مجرد انقلاب مألوف يحل فيه فرد محل آخر في رئاسة نظام ثابت.

ومع ذلك، فإن مثل هذه الثورة قد لا تحدث أبدًا في ظل القوة العسكرية والتدابير القسرية المتاحة للأنظمةالقائمة. وحتى لو حدثت في ظل الخلافات التي من المحتمل أن تنشأ فقد كان من الصعب تصور كيف يمكن أن تترسخ الديموقراطية ترسخًا سهلًا ودائمًا. لقد كان من اليسير الحديث عن الأحزاب وعن معرفة ما الذي يطمحوا إلى تحقيقه. وكان من الواضح أن الإسلام يمكنه أن يوحد ويفرق في أن واحد. لقد كمنت المفارقة في أن صناديق الاقتراع إذا ما استخدمت بسخاء زائد فقد تؤدي إلى انتصار حزب أو ائتلاف غير مبال أو معادي للديموقراطية.

إن ما حدث في الجزائر في عام 1992 أوضح تلك التعقيدات. فقبل ذلك بثلاث سنوات أخذ الرئيس شاذلي بن جديد (ولد عام 1929)، الذي كان رجلًا عسكريًا خدم من قبل في الجيش الفرنسي في الهند الصينية، خطوة ديموقراطية. فقد صادق على دستور جديد أقر التعددية الحزبية إلى جانب جبهة التحرير الوطني (-FLN التي سيطرت منذ الاستقلال). مما مكن الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) من إحراز تقدم كبير في الحكم المحلي فقد حصدت حينها عدد ساحق من المقاعد في الجولة الأولى لانتخابات البرلمان الجزائري. وفي تلك المرحلة، تدخلت القيادة العسكرية فأُلغيت الانتخابات وعُلِق البرلمان وأُطيح ببن جديد. وفي المقابل شن الجناح العسكري ل FIS هجمات على الجيش وأهداف أخرى. وأعقب ذلك حرب أهلية مريرة وخسائر فادحة في الأرواح بلغت ما يقرب من 100.000 شخص. لقد تطلب الأمر بعض الوقت لعقد هدنة اتفق عليها في عام 1997 لتكون فعالة بالفعل في إنهاء العنف. لقد بدا أن عقد مصالحة وطنية تتضمن عناصر إسلامية وعلمانية مختلفة أمرًا شاقًا. كما ظلت العلاقات المدنية– العسكرية مشكلة صعبة الحل. وجرى التنازع على الحق في الثورة الجزائرية الحقيقية . وفي عام 1999 أصبح عبد العزيز بوتفليقه (ولد عام 1937) أول رئيس مدني للدولة. وقد ظل بعد مرور عقد من الزمن محتفظًا بمنصبه بعد أن أزال حد الفترتان الرئاسيتان للترشح لمنصب الرئاسة وبعد أن حاز على غالبية 90٪ من الأصوات. ولم يكن السياسيون من جيل ما بعد الاستقلال قد وضعوا بصمتهم على الساحة بعد. وبطبيعة الحال فقد كانت هناك جوانب محددة في

التجربة الجزائرية ولكن القضايا المتنازع عليها تردد صداها في جميع أنحاء العالم العربي. ولم يكن تحقيق توازن منفرد أو بسيط أمرًا محتملًا.

أما في العراق وبالتالي في باقي أنحاء الشرق الأوسط فقد بدا من المعقول في كثير من الأحيان، لبعض المراقبين استنتاج أن الشعوب الإسلامية لم تكن في انتظار أن يتم تحريرها. فلم يكونوا مثل الأوروبيين الشرقيين في الفترة التي سبقت سقوط الشيوعية في انتظار أن يتم تحريرهم. حيث أظهر انتخاب محمود أحمدي نجاد رئيسًا لإيران في العام الماضي أن الشعوب يمكن أن تنساق وراء نزعة شعبوية معادية بشدة للغرب تعتمد على استغلال الشعور الدائم بأن إيران قد تعرضت لمضايقات في الماضي. لقد أعلن النظام أنه لن تتم مضايقة إيران مرة أخرى ولم يتردد في سحق المعارضة الداخلية. لقد كانت سياسة إيران النووية تعبيرًا عن هذا الشعور سواء أكان هدفها إنتاج أسلحة نووية أو لم يكن كذلك. إلا أن السياسة الداخلية للدولة ظلت معقدة من حيث التفاعل بين القيادات الدينية والعلمانية. كان الخوميني قد توفى في عام 1989 ولم تحظ شخصية دينية بالدور الذي كان يتمتع به. لقد بدا أن موقف أحمدي نجاد العالمي سيحول دون إجراء تسوية مع الغرب وإن بدا في بعض الأحيان أن هناك احتمالية طفيفة بالتوصل لاتفاق بشأن القضية النووية. لقد كانت عدائيته تجاه اسرائيل أمرًا لا هوادة فيه عبر عنها بدعمه لحزب الله، حيث تعهدت المنظمة الشيعية المتطرفة في لبنان بالإطاحة "بالإمبريالية الصهيونية". وأحدث فشل إسرائيل في هزيمة حزب الله في جنوب لبنان الشرخ الأول في فكرة أن إسرائيل ستربح دومًا في أية مواجهة عسكرية. مما صعد إحساسها بعدم الأمان وجعلها ترى يد إيران في كل مكان. ومع شعور إسرائيل بأن إيران سيصبح لديها أسلحة نووية فقد أملت أن تستأصل الولايات المتحدة تلك الإمكانية. ومع ذلك، ففي واشنطن كان هناك بعض القلق بأن الاسرائيليين سيفعلون ذلك بأنفسهم بغض النظر عما يراه "العالم". ومن المحتمل أن لا يمكن التكهن بعواقب أي المسارين.

إن نجاح العراق جعل من الهام بالنسبة للإدارات الأمريكية تحسين علاقتها بالعالم العربي. ولما الحكام العرب التقليديين المتشككين في الأقليات الشيعية وإيران غير

مستجيبين. ومع ذلك فلم يتمكنوا من الإفصاح عن التزام علني تجاه القضية الفلسطينية (في حين كانوا فعالين في إعداد العديد من الحلول الممكنة). لقد رغبت الولايات المتحدة الأمريكية في إظهار تقديرها لأهميتهم. فأبدت إدارة بوش تلميحات وجربت بعض المداهنة والنقد لإسرائيل ولكنها ما كانت لتتجاوز الحدود التي وضعتها وإلا سيلحظ جمهور ناخبيها المحليين ذلك. ومع ذلك فتحريك عملية السلام لم يكن سهلًا في 2010-2011 عما كان عليه في أي مرحلة سابقة. إن الأمر لم يكن غيابًا للإرادة، في نهاية المطاف، ولكن افتقارًا للقدرة الأمريكية والذي حال دون تحول تلك المنطقة الحيوية التي أنفق عليها الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين وقتًا كثيرًا، على ما يبدو دون جدوى. وبالتالي مع دخول عام 2011 يبدو أن القليل قد تغير في مشهد الشرق الأوسط فكما حكموا في 2001 وبالفعل في عام 1991 حكم مبارك مصر وبن علي تونس والقذافي ليبيا وصالح اليمن والأسد سوريا. وسرعان ما تغير المشهد في الشهور الأولى. فقد أدى أول احتجاج شعبي في تونس إلى فرار بن علي الذي اتهم بالفساد وأسرته من البلاد. وثانيًا بعد صراع أطول في قلب القاهرة تنحى مبارك عن الحكم ثم قُدم للمحاكمة. وفي ليبيا كانت انتفاضة تجاه القذافي في بني غازي بداية صراع طويل معه خلال الصيف أدى إلى انتصار المجموعات التي شكلت مجلس انتقالي والذين دعمت انتصارهم القوات الجوية بموافقة الأمم المتحدة ومن خلال بعض دول حلف الناتو لاسيما بريطانيا وفرنسا حيث لقي القذافي ميتة شنيعة. كما كان يجري في الوقت ذاته صراع على السلطة أيضًا في اليمن. أما في سوريا فلم يتردد بشار الأسد في استخدام القوة ضد المتظاهرين في صراع طويل للاحتفاظ بالسلطة.لقد اشتد بمرور الشهور وتردد صداه في العالم العربي وعلى نطاق المجتمع الدولي . وعلى الرغم من استنكار القوى العظمى للخسائر في الأرواح فلم يتمكنوا من الاتفاق على أن أي حل للصراع الداخلي سيتضمن إجبار الأسد على الرحيل. وفي وقت كتابة هذا الكتاب، كان النظام لا يزال في مكانه والمستقبل غامض. واخترعت لغة الصحافة مصطلح الربيع العربي بالطبع بعد أن رغبت بالفعل جميع الشعوب في الحرية. ثم حدثت حادثة مفاجئة وهي أن الشعب سُلِبَ منه انتصاره في الانتخابات العامة الإيرانية. لقد أخبر الشباب تليفزيونات العالم أنهم رغبوا في الحرية قائلين أنهم لم يعرفوها من قبل. ومن

ثم فهل كان هذا جيل جديد يخلق مستقبل جديد أم كان أمر مؤقت؟ لقد كان نظام القذافي يرثى له ولكن لم يكن من الواضح ما هو نوع الحكومة التي قد تخلفه وسواء كانت ليبيا على هذا النحو ستبقى. لقد كان من المحتمل أن يكون للإطاحة بالنظام عواقب تؤدي إلى عدم الاستقرار جنوبًا- في مالي على سبيل المثال. وفي مصر كذلك، لم يكن إنشاء نظام حكومي صالح ومقبول أمرًا محتمل الحدوث بين عشية وضحاها. لقد ترك ذلك الغرب في حالة من الحرج: حذر من التدخل ولكنه يوافق عليه بشكل عام. لقد مورس ضغط دبلوماسي على مبارك على سبيل المثال. وعلى الرغم من ذلك، فباستثناء ليبيا وربما، عند مرحلة ما في المستقبل، في سوريا، كان على الشرق الأوسط أن يحل مشاكله بنفسه. ولم يعد بمقدور أي مراقب القول بما يعنيه كل هذا فربما يكون ما عليه الحال هو أن كل شيء آخذ في التغير الآن في الشرق الأوسط وربما لا يكون الأمر كذلك.